مختصر الجامع
في
السيرة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

مختصر الجامع
في
السيرة النبوية

تأليف
سيرة الزايد
إجازة في الشريعة وإجازة في الآداب

الجزء الأول

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م
حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

المطبعة : العلمية
عدد النسخ / ١٠٠٠ /

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إهداء

● إلى سيدي رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ سيِّد الأوَّلين والآخرين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين . قائد الغرّ المحجَّلين ، وحامل لواء الحمد يوم الدين ، وإمام الهداة والمهتدين . أشرف من مشى على الأرض ، وأعظم من عرف التاريخ طهراً وسموّاً ورحمةً ونبلاً وكرماً ..

إليه ﷺ نقدِّم هذا الكتاب ؛ إيماناً وتصديقاً ، وحباً ، وعهداً ، ووفاء ..

● إلى الدعاة المخلصين في كل مكان ، المهتدين بهديه ﷺ ، العاملين لنصرة الإسلام ، والذود عن ميراث النبوة المقدَّس ، المرابطين على الثغر لا يغمض لهم جفن ..

إليهم أيضاً نقدِّم هذا الكتاب ؛ رفداً ، وتقديراً ، ونصراً ، وحباً ، وتكريماً ..

● إلى الناشئة من أبنائنا ، أبناء الإسلام ، في كل أرض ومن كل لون وجنس ، الذين صوَّحت نبتات الإيمان في قلوبهم منذ غاب عنهم نور النبوة ونهجها حتى أضاعوا نسبهم الشريف ..

إليهم أيضاً نقدِّم هذا الكتاب ؛ عوناً لهم على العودة إلى واحة الهدى ودين الحق ، ومراجعةِ ذلك الانتماء القدسيّ الشريف ..

محتويات الكتاب

الجزء الأول :

ويضم :
مقدمات .
القسم الأول : من الولادة إلى البعثة .
القسم الثاني : البعثة والدعوة في دورها المكي .
القسم الثالث : الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني (من السنة الأولى للهجرة حتى السنة الثالثة) .

الجزء الثاني :

ويضم :
تتمة القسم الثالث (من السنة الرابعة للهجرة حتى الوفاة) .
القسم الرابع : شمائل النبي ﷺ .

الجزء الأول

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ولي كل نعمة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فإن جلّ الذين يكتبون اليوم في السيرة النبوية ، يعتمدون على الطريقة التحليلية القائمة على ما يسمى بالمذهب الذاتي في كتابة التاريخ .

ومن المعلوم أن هذه الطريقة تجمع بين نقيصتين اثنتين :

إحداهما : عدم الانضباط بالموازين العلمية في النقل والرواية ، وتضييع القارىء بين احتمالات اعتماد الكاتب فيما يصور ويكتب ، على روايات ساقها ، أو تخيلات حاكها من خزانة فكره وخياله .

الثانية : فتح مجال رحب ، بهذه الطريقة ، للعبث بأحداث السيرة ، واستخدامها للهدف المطلوب أياً كان . فما أيسر أن يستنطق الكاتب ، من خلال اتباعه لهذا النهج ، مشاهد السيرة ووقائعها التاريخية ، بما يروق لفكره ويتفق مع مذهبه وعقيدته .

وهذا ما قد تمّ فعلاً ، فقد صاغ أولو الفكر والاتجاهات الماركسية ، أحداث السيرة النبوية ، على النحو الذي يخدم اتجاههم ويحقق الدعاية المطلوبة لمذهبهم ، أما ذوو الميول الإمبريالية والأفكار الغربية ، فقد استطاعوا هم الآخرون أن يصوغوا أخبار السيرة النبوية طبق ما يتفق مع ميولاتهم وأهوائهم .

ولا شك أن هذا من أخطر أنواع العبث بالتاريخ ، ومن أسوء مظاهر الخيانة للحق .

لذا ، فقد مست الحاجة إلى التحذير من اتباع الطريقة التحليلية والذاتية هذه ، وإغلاق السبل أمام الكاتبين دونها ، وانتزاع الثقة من أفئدة القارئين بمن يصرّ على الاعتماد عليها ، والدعوة إلى الانضباط بالطريقة العلمية المعروفة في كتابة التاريخ الإسلامي عموماً والسيرة النبوية خصوصاً . وهي الطريقة القائمة على النقل ، ثم توثيق النقل بضوابط السند وموازين الصحة والضعف والبطلان فيه .

☆ ☆ ☆

ولقد كان من أفضل ما كتب في السيرة النبوية ، على هذه الطريقة العلمية المنضبطة ، في هذا العصر ، تلك الموسوعة التي ظهرت منذ سنتين تقريباً باسم « الجامع في السيرة النبوية » ، وكانت قد عكفت على إخراجها وضبطها بأدق ضوابط السند والرواية والتوثيق ، فتاة من أبرز الفتيات المنصرفات إلى خدمة هذا الدين الإسلامي العظيم ، علماً وتعليماً ودعوة وإحياءً لأصوله ومنطلقاته العلمية المتنوعة ، في هذا القطر العربي الإسلامي المبارك . وأعتقد أنه لاقى قبولاً واستحساناً ، بل إعجاباً من سائر الأوساط .

أما هذا الكتاب فملخص أو مختصر عنه . وقد لاحظت أنه لا يختلف عن أصله في حجم المعلومات وضبط الأحداث بعد نقلها ، وإنما روعي فيه تجاوز المكررات واختصار الأسانيد ، مع الإبقاء على التوثيق والإحالات .

إنني إذ أهنىء الآنسة التي عكفت على إخراج هذا الكتاب طبق النهج العلمي الأمثل في خدمة السيرة النبوية والسنة المطهرة والفقه وأحكامه والثقافة الإسلامية عموماً ـ وهو جهد سبقت فيه بحمد الله الرجال في هذا العصر ـ أسأل الله أن يقيّض من الإقبال عليه ، ما يتكافأ مع أهميته ، وأن يصلح أعمالنا ويجمع شملنا على ما يرضيه .

١٤/جمادى الأولى ١٤١٥

١٧/تشرين ثاني ١٩٩٤

محمد سعيد رمضان البوطي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا شك أن بعثة المصطفى ﷺ كانت أكبر منعطف في تاريخ العرب بل في تاريخ العالم أجمع ؛ فقد كانت النور الذي شعّ وسط ظلمات الشرك فقضى على الكفر والضلال في عالم امتلأ بالزيغ والفساد وصفه سبحانه بقوله : ﴿ ظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كسبت أيدي النّاسِ ﴾[1] .

ولقد استطاعت رسالته ﷺ التي بلّغها الإنسانيةَ عن ربّه أن تصوغ الإنسان الصالح القادر على إعمار الحياة ، وبناء الحضارة ، وقيادة الأمم تحت راية التوحيد ، فكانت خير حضارة عرفها التاريخ ، لكن المسلمين ما لبثوا - لسوء حظهم - أن تجافوا عن سَنن نبيّهم ، ونهجه ورسالته ، ففقدوا بذلك النور الذي قادوا به الأمم زمناً طويلاً ، ثم خَلَفَت من بعدهم أجيالٌ جهلت رسولها وشريعته ، وأضاعت المنهج النبوي الذي قاد المسلمون به الحياة وحكموا الأمم ردحاً طويلاً من الزمن ، وبذلك تخلّف المسلمون وسقطت من أيديهم راية القيادة العالمية ، ثم ما لبثوا أن تراجعوا أكثر فصاروا ساقة الأمم ، وأتباع كل ناعق من دعاة الشرق والغرب من أرباب المذاهب الوضعية ، فبعدت الشقة بينهم وبين نهج النبوة ومنابع الهدى ، واتسع الخرق على الراقع - كما يقولون - وحار الدعاة إلى الله تعالى من أين يبدؤون ، وكيف السبيل إلى إعادة هذه الأجيال إلى الإسلام ؟!..

وإذا كان أمر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وهو سلامة العقيدة وصحتها ، فإن الطريق إلى تصحيح المسيرة يجب أن يبدأ وينتهي بربط هذا الجيل برسوله الأعظم ﷺ ، ما دام الله قد جعل الشهادة برسالته عليه الصلاة والسلام قسيم الشهادة بوحدانيته سبحانه .

وتبدو أهمية هذا الأمر الجليل في تصحيح المسيرة من خلال تأكيد علماء العقيدة على أنها المحرك الأول لفكر الإنسان وعاطفته وسلوكه ، ولا ريب أن الخطوة الأولى في ربط هذا الجيل برسوله محمّد ﷺ إنما هي تعريفه به ﷺ تعريفاً كاملاً وسليماً وشاملاً من خلال كتب السيرة المطهرة .

ولما كانت أخبار سيرته ﷺ قد توزعت في هذه الكتب ولم تلتق جميعاً في واحد منها ، فقد رأينا أن نجمعها لهذا الجيل من أصح المصادر وأفضلها في كتاب واحد بأسلوب مختصر خالٍ من الحشو والتكرار .

ومن ثمّ عدت إلى كتابي « الجامع في السيرة النبوية » - وهو كتاب ألّفته منذ مدة قريبة جمعت فيه أحداث السيرة من مصادرها المعروفة جميعاً ليكون مرجعاً في السيرة النبوية يغني عن العودة إلى تلك المصادر المتفرقة - فعمدت إلى دراسة جميع الروايات الواردة في حادثة ما ؛ فكنت أدرسها ثم ألخصها برواية واحدة تجمع بينها مع المحافظة على لفظ الروايات ما أمكن ، وعند تعذر الجمع بينها كنت أسوق الرواية من أحد المصادر ، وأذكر ما ورد من زيادات أو فوائد في روايات أخرى خلال سياق الرواية الأولى ، أو بعد الفراغ من إيرادها دون أن أذكر الروايات كاملة تجنباً للتكرار والإطالة دونما فائدة .

وكنت أحياناً أحاول التوفيق بين الروايات المتعارضة إن وجدت لذلك ضرورة . وقد أعرضت عن ذكر الأخبار الضعيفة جداً أو الموضوعة ، واقتصرت على الصحيح أو الحسن منها ، وكنت أذكر أحياناً بعض الأخبار الضعيفة لشهرتها مع الإشارة إلى ضعفها في الحواشي .

---

(١) الروم : ٤١ .

وقد سردت أحداث السيرة سرداً تاريخياً بحسب ترتيبها ، فإذا رأيت أصحاب المغازي والسير وأهل السنن قد اختلفوا في زمن حادثة ما ، سعيت إلى الترجيح بمقارنة الأحداث بعضها ببعض ، أو اعتمدت ما وجدته أصح الأقوال ، فإن لم أتعرف أصحها اخترت أحد الأقوال وأشرت إلى الأقوال الأخرى .

وذكرت اليسير من تعليقات الكتّاب الإسلاميين على أحداث السيرة حيث بدا لي في ذلك فائدة أو إضاءة .

وضبطت الآيات الكريمة والأقوال النبوية الشريفة بالشكل ، ووضعتها ضمن أقواس تمييزاً وتوضيحاً ، كما ضبطت الأعلام ومواقع البلدان والغزوات وعرَّفت بها ، وشرحت الألفاظ والتراكيب الغريبة أو المبهمة .

وقد جعلت للكتاب مقدمات ثلاث :

الأولى : في أهمية دراسة السيرة النبوية

الثانية : في تاريخ التأليف في السيرة ؛ استعرضت فيها زمنياً طبقات المؤلفين فيها ، والأدوار المختلفة التي مرَّ بها هذا التأليف .

الثالثة : ذكرت فيها لمحة موجزة عن وضع الجزيرة العربية قبل الإسلام ـ وهي في حقيقتها مستفادة من المقدمة التي سقتها في كتابي « الجامع في السيرة النبوية » مع اختصار جوانب منها ، وتعديل وإضافة وتفصيل في جوانب أخرى ـ وذلك من أجل أن أضيء على الواقع الذي بدأ منه رسول الله ﷺ عمله ؛ من حيث البيئة الجغرافية ، أو القوم الذين وقع عليهم الاختيار الإلهي الحكيم ليتلقوا من رسول الله ﷺ الرسالة السماوية الأخيرة ثم يبلِّغوها العالمين . ومن جهة أخرى فإن عرض هذا الواقع يعين القارىء على فهم الأحداث ، وكشف أسبابها ، ومعرفة تسلسلها ونتائجها .

ثم قسمت الكتاب أقساماً أربعة تيسيراً للدراسة وإيضاحاً لملامح السيرة وتمييزاً لقسماتها ومراحلها :

الأول : من الولادة إلى البعثة .

الثاني : البعثة والدعوة في دورها المكي .

الثالث : الدولة الإسلامية والدعوة في دورها المدني .

الرابع : شمائل النبي ﷺ .

أرجو الله سبحانه أن يجعل عملنا راشداً موفقاً ونافعاً ، خالصاً لوجهه الكريم ، مسهماً في تربية الجيل التربية الإسلامية وإعادته إلى جادة الإسلام وظلال النبوة الكريمة . وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين .

المؤلفة

أهمية دراسة السيرة النبوية

تستمد دراسة السيرة النبوية الشريفة أهميتها من مكانة رسول الله ﷺ في العقيدة الإسلامية ؛ إذ هي المصدر الأول لمعرفته ﷺ ، وبها يستعين المسلم على تحقيق أمور هي من صلب عقيدته ودينه .

فأولها : تحقيق الشهادة برسالته ﷺ ؛ باعتبار أن تلك الشهادة برسالته ﷺ هي الشطر الثاني من الركن الأول من أركان الإسلام : « محمّد رسول الله » ، وتلك الشهادة يأبى الله ، عزّ وجلّ ، أن تكون كلاماً ينطق به اللسان ، إنما يريدها سبحانه أن تكون مع ذلك وقبله وبعده عقيدة راسخة في ضمير المسلم ينبثق عنها فكر وعاطفة وسلوك في الحياة ... وهذه جميعاً يعين على تحقيقها دراسة السيرة المطهرة دراسة عميقة وجادّة ، فإن المعرفة السليمة الكاملة تؤدي إلى الإعجاب بالشخصية المتعرف عليها إذا كانت عظيمة فكيف إذا كانت شخصية المصطفى ﷺ ؟ وشدة الإعجاب تقود إلى المحبة ، والمحبة إذا رافقها حسن الاتباع والتأسي مع كمال القناعة أدى ذلك إلى عقيدة راسخة تترك آثارها في الفكر والعاطفة والسلوك .

وثانيها : إزالة الشبهات التي زرعها أعداء الإسلام في نفوس المسلمين حول صدق نبوّته ﷺ ؛ فالسيرة تفيد الدارس التثبتَ من نبوّته ﷺ وأنه ليس عبقرياً ولا بطلاً فحسب ، وإنما هو نبيّ الله ورسوله إلى الإنسانية جمعاء ، وإزالة ما قد يكون عالقاً في النفس من شبهات حول شخصيته ﷺ .

إن من أعظم الحقائق التي يجب أن يمتلكها المسلم اليوم حقيقة النبوة وارتباطها بحقيقة الوحي ، هذه الحقيقة التي يمتاز بها الرسل والأنبياء عن سائر الشخصيات الممتازة في الحياة ، من العباقرة والفلاسفة والأبطال والمفكرين والمصلحين ، والتي كادت أن تختفي في حياة الجيل المعاصر وراء ستائر البدائل الكثيرة التي طرحها أعداء الإسلام في ساحة فكر المسلم وقلبه في غمرة من الغزو الفكري الذي لا يزال يتعرض له العالم الإسلامي منذ عقود كثيرة من الزمان وفي غفلة من الدعاة المسلمين . فلقد سلّطت الأضواء على بدائل كثيرة عن رسول الله ﷺ ، وأُطلقت في مقابل ذلك ألقاب معينة عليه ﷺ توهم بالتعظيم ، ولكن المراد منها في الحقيقة إبعاد معنى النبوة عنه ﷺ وطمس معالمها في شخصيته ، فمرة البطل ومرة العبقري ... حتى أصبح المسلم اليوم لا يفقه ماذا تعني النبوة ، ولا أين يجب أن تكون من حياته ، ولا كيف يجب أن تحكم سلوكه وعقيدته وشعوره ، ولا كيف يجب أن يربط مصيره بها ...

إن المستشرقين الذين يمكرون بالليل والنهار لفصل هذا الجيل عن دينه وإقصاء الإسلام عن واقع الحياة يحاولون الدخول على عقيدة المسلم من كل باب ، وأخطر تلك الأبواب طرّاً شخصية المصطفى ﷺ . وهم يأبون أن يدرسوا الإسلام ورسوله دراسة موضوعية منهجية سليمة ، بالرغم من كل ما يتشدّقون به على الدارسين في ديارهم وما يزعمون لأنفسهم من السبق في المنهجية . إنهم لا يدخلون رحاب تاريخنا العظيم والسيرة بصورة خاصة إلا بمسبق ذهني ولّده الكره للإسلام ، يركبون للبرهان على صحته كل مركب باطل من الخبر الضعيف والشاذ ، ولَيّ أعناق النصوص وتحميلها من الدلالات ما ليس فيها ، وربط الأحداث ربطاً خاطئاً أو بتر بعض أجزاء الحدث .

إن تلك الشبهات التي تزرعها أيدي المكر والعداء في نفوس الجيل لا تنبت ولا تنمو إلا في قلوب تعاني ظلمة الذنوب والمعاصي ، أو ظلمة الجهل بثقافة الإسلام والقناعة بثقافة المستشرقين . وإن مسلم اليوم للأسف لا يملك ثقافة إسلامية كافية تنير له فكره وقلبه وتحفظه من كيد عدوّه وغزوه الثقافي ، وهو للأسف أيضاً غير آسف لذلك ؛ إنه لا يدرك أنه غافل عن معرفة أعظم شخصية عرفتها الحياة ، غيّرت وجه التاريخ وانعطفت بالإنسانية أسعد منعطف وأرقاه .

إن الأجيال المسلمة اليوم قد تنكرت لنبيّها ﷺ تنكراً مزرياً مجحفاً وظالماً وكأنه ليس هو الذي أوجدها في التاريخ وجعل لها أعظم اسم فيه .. تُرى من كان العرب قبيل البعثة المحمدية ؟ ومن كانوا يومذاك في التاريخ ؟.. من كانوا بين الحضارات والأمم الكبرى التي حولهم كفارس وروما ؟! لم تكن هاتان الدولتان يومذاك لتأبها للعرب ولا لجزيرتهم أبداً ..

ومما يثير الدهشة أن تفتح هذه الأجيال بالمقابل قلبها وفكرها للثقافات المعادية للإسلام من غير أن تكلف نفسها البحث في مدى سلامتها ، وتقنع بما تطرحه عليها تلك الثقافات التي تلتقي جميعاً برغم اختلافها على هدف واحد هو : إقناع المسلمين بل أمم الأرض بأن الإسلام لا يصلح للحياة ، وأن شخصية رسول الله ﷺ لا تصلح لقيادة الإنسانية ولا تصلح شريعته لرسم حضارة عالمية معاصرة .

وثالثها : التمكين لمحبته ﷺ في قلب المسلم لأنها شرط الإيمان ؛ فهي محبة مقصودة لذاتها في الشريعة الإسلامية لقول رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[1] .

وإن الحبّ ليفجر في النفس الإنسانية عجائب السلوك وغرائب المعاني المقدسة والراقية ، ويفجر أيضاً معاني التضحية والفداء ، وليس شيء يخلّص الإنسان من معاييه النفسية والسلوكية مثل الحبّ .

ولكن أيّ حبّ ؟ إنه حبّ الله تبارك وتعالى ذلك الحب المقدس الذي يوصل إليه حب رسول الله ﷺ . إنه الدواء الذي لا يخيب . يحدثنا جلال الدين الرومي عما يفعله هذا الحب فيقول : « إن الحبّ يحوّل المرّ حلواً ، والتراب تبراً ، والكدر صفاءً ، والألم شفاءً ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يليّن الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة ، ويسوّد العبد » .

« إن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم ، إلا أن مرضى الحب يستزيدون المرض ، ويحبون أن يضاعف في ألمهم وحنينهم ، لم أر شراباً أحلى من هذا السمّ ، ولم أر صحة أفضل من هذه العلّة ... إنها علّة ولكنها علّة تخلص من كل علّة ، فإذا أصيب بها إنسان لم يصب بمرض قط ، إنها صحة الروح ، بل روح الصحة ، يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم ... »[2] .

إن أكبر فجيعة أصيب بها العالم الإسلامي هي فتور هذا الحب المقدس في قلوب المسلمين بسبب إساءتهم إلى دينهم ومخالفتهم عن أمر نبيّهم في كثير من الأمور وقبولهم البدائل عن رسول الله ﷺ تلك التي طرحها لهم أعداء الإسلام . هنالك انطفأ بريقهم وضاعت نخوتهم وتخلّفوا بين الأمم .

إن المسلم اليوم لم يعد يتمتع بذلك الإشعاع الذي كان يضيء به ـ فيما مضى ـ ظلمات الكفر ودياجير الجاهلية ، وبالتالي فقد دوره في قيادة العالم إلى الهدى والرشاد . وهذه خسارة كبرى للمسلم وللعالم لا يعوّض عنها ما بلغه العالم من الكشوف والاختراعات والتقدم العلمي والتوسع الاستعماري ؛ أما المسلم فقد خرج من ساحة الرضا الإلهي إلى حيث التخلف ، وتردى والعياذ بالله في هوة التخلف والتبعية لأمم الكفر . وبذلك عادت الحياة شبيهة بما كانت عليه قبيل ظهور المصطفى ﷺ على مثل ما وصف الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيدِي النَّاسِ ﴾[3] . وأما العالم فقد انتكس بعد المسلم إلى حمأة الجاهلية .

واليوم لا يصلح حال الأمة إلا بما صلح عليه أولها ، وذلك بالعودة إلى طاعة رسول الله ﷺ ومحبته واتباع سنته .

وليعلم المسلم أن محبة رسول الله ﷺ ليست شيئاً رخيصاً يشترى بالثمن البخس أو التقديم البسيط أو أداء القليل من السنن والنوافل ، وإنما ثمنه أن يترسّم في حياته منهج رسول الله ﷺ وأخلاقه حتى يبلغ حرصه في ذلك (أن يقع خُفٌّ على خُفٍّ) ، وأن تصبح مرضاة رسول الله ﷺ ونصرة دينه همّه في ليله ونهاره وفي صحوه ومنامه وفي سرّه وعلنه .

---

(١) سنن النسائي : (ج٨/١١٤) كتاب الإيمان وشرائعه .

(٢) رجال الفكر والدعوة : (ص : ٣٥٨ ، ٣٥٩) .

(٣) الرُّوم : ٤١ .

إن الصحابة الكرام ما نالوا محبة رسول الله ﷺ بالثمن القليل ... لقد تركوا من أجله - في الله - المال والولد والأهل والوطن ، وتركوا الراحة والزعامة ورضوا بالمواجع واستقبلوا المنغّصات راضين مسرورين .

في سبيل الله ورسوله كان يحلو عندهم المرّ ، ويسهل الصعب ، ويقرّب البعيد ، وتجمل المهالك ، ويعذب الموت . وإن من يقرأ أخبارهم في غزوهم سواء كانوا مع رسول الله ﷺ أم كانوا وحدهم في سراياهم يدرك أنهم ما كانوا في غزو أبداً وإنما كانوا في مُتنزَّه يسعد قلوبهم ، لقد كان حب للمصطفى ﷺ يمسح على جراحاتهم وآلامهم ، ويهوّن لهم المصاعب ، ويحبب إليهم لقاء العدو ، ويرطب لهم جو الصحراء . وكان حبه ﷺ واحة يأوون إليها من هجير الكفاح وسهام العدو .

لقد وسّع حب رسول الله ﷺ آفاقهم وساحات قلوبهم وأغوار نفوسهم فغدوا بشراً من نمط ممتاز لا يعرف التاريخ أمثالهم أبداً ، يكفي فيهم قول رسول الله ﷺ : « النجوم أمان لأهل السماء ، وأصحابي أمان لأمّتي »[1] ، ومن يصفه الرسول ﷺ بأنه الأمان فقد كفاه ذلك عزاً وفخراً وشرفاً وعلواً وسبقاً في الصالحين وقرباً من الله عز وجل .

ويوم أحبّ الصحابة الكرام رسول الله ﷺ لم يفهموا ذلك الحبّ متعاً ومشاعر وأشواقاً باهتة مبتورة ، وإنما فهموه خروجاً عن الذات في سبيل نصرة الإسلام ، ولم يروا أن قضية الإسلام ينقضي شأنها بالشهور والأيام ، وإنما عرفوا أن هذا الإسلام قد اختاره الله سبحانه خطاباً أخيراً للإنسانية ، خطاباً يحمّلهم ورقة عمل تمتد منذ لحظة إعلان إسلامهم إلى آخر لحظة في حياتهم بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... هنالك شدّوا الحيازيم وعرفوا أن أمامهم رحلة تحليق تمتد إلى آخر عمرهم ارتفعوا فيها فوق شهواتهم وفوق ثقلة الأرض ومطالب الجسد وآلام الأرض وأفراحها وأحزانها ... ارتفعوا إلى حيث المثل والفضيلة والعطاء ، ونكران الذات والتجرد والثقة والثبات والتضحية والجهاد .

لقد علّمهم حبّ رسول الله ﷺ أن يحملوا الإسلام رسالةَ حب إلى الإنسانية ، وعرّفهم أن هذه البشرية الضائعة هي أحق بالرحمة والعطف منها بالانتقام والعقوبة . فخرجوا إليها يحملون لها الهداية على مراكب الرحمة والمحبة في سلمهم وحربهم ... ترى أيّ حب هو أعظم مما تؤديه هذه المفاهيم التي ذكرها رِبْعيّ بن عامر وهو يخاطب رُستم يوم توجه المسلمون إلى فتح فارس .. قائلاً : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[2] . أيُّ حبّ - ترى - أعظم من هذا الحبّ ؟ إنسانٌ يترك مألوف حياته ويترك الأهل والوطن ويضحي بروحه ، يعرّضها للموت ليخرج إلى أمة لا تربطه بها رابطة أبداً من أجل أن يبلّغها رسالة الإسلام ويخرجها من الظلمات إلى النور . إن هذه النوايا الطيبة وهذا الحب العظيم لشيءٌ يجلّ عن الوصف وتعجز عنه اللغة حقاً ، فمهما أحبّت الشعوب الفاتحين المسلمين ومهما أحبّت رسول الله ﷺ الذي خرّجهم من مدرسته فهو حب قليل في موازين الشكر والجزاء .

وليقرأ المسلم إن شاء صوراً من ذلك الحب والتقديس لرسول الله ﷺ في كتاب الأستاذ أبي الحسن الندوي (الطريق إلى المدينة) ، وفيه يعرض نماذج من أشعار العجم تثني على رسول الله ﷺ ، ويعرض فيه من خياله وفود المسلمين من كل جنس وأرض جاءت تزور قبر الحبيب ﷺ وتؤدي فروض الشكر التي وجبت عليها لرسول الهدى الذي حمل لها نعمة الإسلام ورفعها بهذا الدين مكاناً عليّاً . فمن ذلك مثلاً يقول الشاعر الهندي ألطاف حسين (المتوفى سنة ١٣٣٣ هـ) : « لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرّق وغرّب رعدها وبرقها ، فبينما رعدت على نهر تاجه في إسبانيا أمطرت على نهر الكنج في شبه القارة الهندية . لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعم برّها البر والبحر ، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ، ونور وسناء ، إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية »[3] .

---

(١) مجمع الزوائد : (ج ١٠/١٧) .

(٢) حياة الصحابة / محمد يوسف الكاندهلوي : (ج ١/٢٠٣) .

(٣) الطريق إلى المدينة : (ص : ١١٣) .

والحق أنه ما من كتاب يعرض شخصية المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، عرضاً حيّاً يحبب القارىء برسول الله ﷺ مثلما يعرضها كتاب السيرة .

ففي السيرة يجد المسلم نبيّه ﷺ وهو يدرج منذ طفولته ، عليه الصلاة والسلام ، نحو الشباب المبارك ثم نحو الكهولة يقطع أشواطاً فريدة لا تعرف البشرية أمثالها صفاءً ولا نقاءً ولا سمواً ولا رعاية من الله ، يشهد النسب الرفيع والولادة المباركة واحتفال الكون به ﷺ ، ثم يشهد الكلاءة الإلهية على كل صعيد ، والتأديب الإلهي على مدى أربعين عاماً ، فيدرك عند ذلك كيف أعدّ الله هذه الشخصية المباركة لحمل آخر رسالة سماوية للبشرية ، ثم يراه في نهاية فترة الإعداد عابداً لربّه عاشقاً له ، ثم تلميذاً لجبريل ، عليه السلام ، يتلقى الوحي منه ويبلّغه في أرقى صورة وأسماها وأحبها إلى الله ؛ فإذا هو المربي الكبير المتصف بكمال البرّ والبشر وسموّ الصحبة والصبر والكرم والأدب وقوة الصلة بالله ، وإذا هو الأب الشفيق والمعلم الناصح للصحابة الكرام ؛ يرعاهم في فقرهم وغناهم ، وفي سموّهم وهبوطهم ، ويوظف مواهبهم أرقى توظيف ، ويعدّهم لينشروا معه رسالة السماء ، ويتحرك ﷺ لخدمة الإسلام ويمضي عليه الصلاة والسلام يتحمّل أعباء النبوة ومشقاتها بدءاً من سن الأربعين ، تلك السن التي ينصح فيها الأطباء الناس بالاهتمام بالصحة وراحة الجسد والأعصاب ، على حين يرى النبي ﷺ في هذه السن وقد بدأ يحمل هذه المسؤولية العظيمة وينتقل فيها من طور إلى طور ، فمن طور الموعظة والجدال مع المشركين وتلقي الأذى منهم في مكة إلى طور القيادة البارعة والسياسة الحكيمة في المدينة المنورة ، هناك يشهده المسلم قد بدأ حياته العسكرية في الثالثة والخمسين من عمره ، تلك السن التي تسرّح فيها الجيوش أفرادها وتحيلهم إلى المعاش وتؤمن لهم حياة راغدة تقديساً لجهودهم الماضية ، في هذه السن يلقى المسلم نبيّه ﷺ في الغزوات وأرض المعارك لا يكاد يتركها أبداً .

وكذلك انقضت حياة النبي ﷺ بين مَعْلَمَين مقدسين ؛ أولهما قوله عزّ وجلّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ .. ﴾[1] ، وثانيهما قوله سبحانه وتعالى في أواخر ما نزل من الوحي : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[2] . فيما بين هذين الْمَعْلَمين تحرك النبي ﷺ بإذن الله وبأمر منه على هدى وبصيرة ، ولم يلق الله ، سبحانه وتعالى ، حتى كان نور الإسلام يسطع على أرجاء الجزيرة كلها وحتى دخل الناس فيها في دين الله أفواجاً .

من خلال ذلك العرض تستضيء للدارس المسلم شخصية الرسول الكريم ومعانيها الكبيرة ، فيلامس حبّ هذا النبي العظيم ، عليه الصلاة والتسليم ، شغاف قلبه وتتبدّل نظرته ، فإذا هو يجدد العهد مع الله ومع هذا النبي العظيم يعاهده أن يحيا هذا الدين حياة جديدة يجعل فيها المصطفى ﷺ في موضع الحبّ الكامل والطاعة الكاملة ، مع الاستاتة في نصرة الإسلام ، ويطلب من الله سبحانه أن يحشره تحت لوائه ، وألا يضلّه بعد أن هداه الله إليه ، وأن يجعل صلته به صلة الصحابة الذين خرّجتهم يده الكريمة ﷺ ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[3] .

ورابعها : الاطّلاع على الإسلام في صورته الحركية وعلى منهج إمام الدعاة ﷺ في الدعوة إلى الله : إن أبرز سمة لهذا الدين الحنيف حركيته وعالميته ، وكل فهم للإسلام بعيد عن هاتين السمتين فهم ضال خاطىء . إن ديننا أعظم من أن يكون عباداتٍ وشعائرَ ، إنه دين الخير والعطاء والحب والسلام للإنسانية جمعاء ، وهو لا يقبل من أتباعه أبداً الصوم والصلاة وشهادة الحق فقط ، وإنما يريد منهم أن يكونوا حملة لراية الإسلام وأن يوصلوا كلمته إلى أقاصي الأرض ؛ فذلك حق الشكر لله على نعمة الإسلام . ومن ثم جعل الله سبحانه الدعوة إلى الإسلام فريضة من فرائضه .

والدعوة إلى الإسلام لابد أن تنتهج منهج إمام الدعاة الرسول ﷺ باعتباره الأسوة الحسنة المختارة من قبل الله عز وجل ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[4] . وهو منهج نراه في السيرة واضح الملامح والقسمات بكل أركانه ومراحله ، حتى إن كل من كتب من العلماء في الدعوة والدعاة إنما استقى من سيرة رسول الله ﷺ ؛ ففي السيرة يجد المسلم الداعية

(١) المدّثر : ١ ـ ٣ .

(٢) المائدة : ٣ .

(٣) آل عمران : ١١٠ .

(٤) الحشر : ٧ .

العظيم محمّداً ﷺ كيف اختاره الله من بين الناس أجمعين وصنعه على عينه وأعدّه إعداداً عظيماً عظم رسالة الإسلام نفسها ، خرج بعده ﷺ مثال الجمال والكمال في الفكر والقلب والسلوك ليبلّغ الإنسانية جمعاء خطاب الله الأخير إليها . فمن دعوة السّر إلى الجهر ، في إطار من السلم ، ثم ينتقل إلى المدينة فتكون المغازي دفاعاً ثم هجوماً ، كل ذلك في النطاق المحلي للجزيرة العربية ، ثم ترسم السيرة ملامح المرحلة العالمية في سني حياته الأخيرة ، صلوات الله عليه وسلامه ، حين يرسل بالكتب إلى الملوك والزعماء خارج الجزيرة يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ويجمع لأسامة ، رضي الله عنه ، قبيل وفاته ﷺ جيشاً يأمره أن يطأ به البلقاء والداروم من أرض فلسطين . مسلّماً بذلك المسلمين زمام المرحلة العالمية للدعوة ، ليتابعوا تلك المرحلة حتى آخر الدهر ، ثم ينتقل إلى رحمة ربّه راضياً مرضياً صلوات الله عليه وسلامه .

وهكذا يطّلع دارس السيرة على الإسلام في صورته الحركية العالمية متجسدة في شخص إمام الدعاة ﷺ ، ويرى فيه صفات الداعية وعوامل صياغته ، ويتعلم الأساليب التي يجب أن ينتهجها الداعية في معاملة الناس بكل ألوانهم وصنوفهم بدءاً من الأحباب والأصحاب والأهل إلى كل جبهة معادية يواجهها في مسيرته إلى الله .

وخامسها : التمكين لمحبة صحابته ﷺ في قلب المسلم والسعادة بصحبتهم والتأسي بحياتهم ؛ فالسيرة تكسب المسلم أيضاً محبة صحابة النبي ﷺ إلى جانب محبته ﷺ ، ومحبتهم مطلوبة لذاتها ، فقد أثنى الله عليهم مهاجرين وأنصاراً في كتابه الكريم ، فقال عزّ من قائل : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] ، ونبّه النبي ﷺ إلى وجوب محبتهم فقال : « الله الله في أصحابي ، لا تتّخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[2] .

وسيجد المسلم في صحبتهم ، رضي الله عنهم ، حافزاً على العمل ، وهو يقرأ صنيعهم وكيف كانوا يتخطون العقبات سواء ما قام منها في نفوسهم أو ما يلقونه من أعدائهم .

إن الفاضل منا اليوم ليعجب بنفسه وعبادته ويتحدث عن قيامه بالليل الساعة والساعتين ، فهل قرأ عن قيام عبّاد بن بشر ، رضي الله عنه ، في غزوة ذات الرقاع ؟ ويتحدث أحياناً عن الصدقة والصدقتين ، فهل قرأ عن صدقات أبي بكر وعثمان وأبي الدحداح رضي الله عنهم جميعاً ؟ ويتحدث عن جهاده في سبيل الله واحتسابه الولد أو الأخ ، فهل قرأ عن احتساب المرأة الدينارية أولادها وزوجها ؟ وهل قرأ ما فعل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، بخاله يوم بدر ؟ وكيف احتسب حذيفة أباه اليمان ، رضي الله عنهما ، في أحد ؟ ويتحدث عن زهده وخدمته الإسلام ، فهل قرأ كيف أغلق الصحابة الكرام أبواب الدنيا ، واستحالت حياتهم جهاداً في سبيل الله ؛ غزواً في النهار وعبادة بالليل ؟ وكانوا مثلما وصفهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة »[3] .

حقاً إن للمسافة شاسعة بيننا وبين أولئك الصحابة الذين ضحوا بكل شيء من أجل الله ورسوله ، بينما وقفنا نحن عند حدود القراءة لأخبار تلك التضحيات الجليلة ، فلئن كان حظنا القراءة وحظهم التضحيات لقد باينونا بوناً عظيماً .

إن المسلم ليسعد بصحبة الصحابة الكرام في السيرة ، يرى فيهم نماذج إنسانية ممتازة لم يعرف مثلها التاريخ تحليقاً روحانياً ولا ارتفاعاً على شهوات الأرض وانتصاراً على النفس وقوة وذكاء وسرعة بديهة وسموّ أدب ... لكل واحد منهم قصة مع الله تهز الضمير وتوقظ القلب ، لقد تفاعلوا مع النبي ﷺ فاستقبلوا نسمات الهدى وأغلقوا أبواب الماضي وتفتّحوا للحياة الجديدة بملء القلوب ، لا يختزنون من مواهبهم شيئاً ولا يحتجزون عن النبي ﷺ شيئاً بعد أن أكرمهم الله بصحبته عليه الصلاة والسلام ... كانوا يستشعرون نعمة الله عليهم ليلهم ونهارهم ، لا يغيب عنهم ذلك الشعور ، كان دائماً في أعماقهم حيّاً يقظاً يحرّم عليهم النوم ويقضّ عليهم مضاجع

---

(١) التوبة : ١٠٠ .

(٢) سنن الترمذي : (ج٥/٦٩٦) كتاب المناقب ـ باب ٥٩/ح٣٨٦٢ .

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : (ج١/١٣٦) .

الراحة ويجعلهم في توتر مستمر لا ينسون فيه الإسلام ولا يستطيعون أن يغفلوا عن معركته لحظة ، هم في المعركة دائماً مع النبي ﷺ يشركونه وهج الكفاح ويحملون معه هموم الإسلام .

هنالك لا يجد المسلم مناصاً من أن يقارن نفسه بهم ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، فتصغر في عينه نفسه ، ويدرك أنه ليس من أهل الحب ولا التضحية ولا الفداء ... وأنه مقصر جداً في حق الله وحق رسوله ﷺ ، فيراجع نفسه وأوراقه ويسعى إلى حياة جديدة فيها الحب الحقيقي لله والانتماء الحقيقي لرسول الله ﷺ ..

وإن المسلم لتأخذه الدهشة من صنع رسول الله ﷺ كيف استطاع ﷺ أن يحوّل هؤلاء الذين كانوا حفاة عراة متخلفين تجاوزتهم حضارة الفرس والرومان فيجعلهم بتربيته الربانية أقطاب الأرض وجهابذة الدنيا وأساتذة العالم وأطباء الإنسانية ومنقذي الغرقى من البشر ..

هنالك تزداد ثقة المسلم بمدرسة محمّد ﷺ فلا يرضى عنها بديلاً ، ويراجع أسلوب تربيته الخاص وتربية أبنائه موقناً أن الإسلام لم يدع شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا أمر به وأرشد إليه .

وسادسها : توثيق علاقة المسلم بمربيه وإخوته وإضاءة طريقه إلى الله : إن دراسة السيرة النبوية تُمتّن صلة المسلم بجماعته ، فإن الجماعة المسلمة المباركة المأذونة من قبل الله سبحانه قائدها ممثل لشخص رسول الله ﷺ ، لأنه يقتفي أثره ويهتدي بهديه ﷺ ، ومن ثم فواجب المسلم أن يحمل لشيخه من الحب والكرامة والتقديس والطاعة مثلما كان يحمله الصحابة لرسول الله ﷺ ، وبغير هذا فلن تكون دعوة ولا جماعة ولن يكون نصر للإسلام ، بل وكل عمل يبذل لخدمة الإسلام خارج هذا الإطار مضيعة للوقت والجهد وسيرٌ لن يكتب له بقاء .

في السيرة يجد المسلم الجماعة الربانية الرائدة فيرى فيها جماعته ويرى شيخه في شخص المصطفى ﷺ فـ « العلماء ورثة الأنبياء »[1] ، ويرى أحبّته وإخوته في الله ، ويجد أحباب الإسلام وأعداءه ، ويرى فيهم جميعاً إيجابياته وسلبياته ، ويتعرف مسارب الإيمان ومسارب الكفر والنفاق في النفوس ، وكيف تكون تزكية النفس واستصغار عطائها وإرشادها إلى دروب الفلاح .

من الصحابة الكرام يتعلم المسلم كيف يكون حب رسول الله ﷺ ، وكيف يترجم الحب أدباً وتضحية وفداء وتجرداً لنصرة الإسلام ... يتعلم منهم كيف يكون الأدب مع رسول الله ﷺ ، مع العلماء ورثة الأنبياء ، مع الدعاة الكبار الذين ساروا على قدم النبوة ، مع كل من خدم هذا الدين .. يتعلم منهم الأدب الرفيع مع الشيخ ، والحب لإخوته في الله ..

ولسوف يجد في سلوك الصحابة إضاءة لسلوكه إلى الله ، ولسوف يرى حلاً لكثير من مشكلاته النفسية وهو يراهم كيف كانوا يتجاوزون نفوسهم ويتغلبون على آلامها وينتصرون في كل مرة ويقدّمون رضا الله على رضا أنفسهم ..

إن السيرة لتغمر المسلم بمناخ إيماني راقٍ من صحبة المصطفى ﷺ وصحبة أحبابه وتفسر له كثيراً من المواقف التي يقابلها في حياته مع شيخه وإخوته ... فلقد كان الصحابة بشراً مثلنا ؛ عقباتهم عقباتنا ، ومواجعهم مواجعنا ، وأفراحهم أفراحنا ، ولكن الله اصطفاهم من دوننا ليجتازوا دروب الإيمان ويعيشوا تجاربه تحت إشراف الحبيب المصطفى ﷺ ويخوضوا مصاعبه حتى يصلوا في النهاية إلى قمم الإيمان السامقة فيلّكهم الله إمرة الدنيا وطبابة الإنسانية . لقد شاء الله أن يكونوا رواداً لنا في مسيرة الإيمان ، فشقوا لنا الطريق وعبّدوه ، وضربوا لنا نماذج لا تنال في خدمة الإسلام ، وفي التغلب على النفس ، وفي الانتصار لصوت الحق ، وفي التنازل عن كل شيء من أجل الله والرسول والإسلام ... كانوا يتغلبون على عقبات الطريق ، وكان نصوع الهدف ووضوحه هو الذي يقيلهم من عثراتهم كلما كبوا ... كانوا يذنبون كما نذنب ولكنهم كانوا يتوبون إلى الله لا كما نتوب ، وإن مشاهد التوبة في حياتهم مشاهد تهز الضمير حقاً ... فمن ينسى توبة أبي لبابة ، أو توبة كعب بن مالك ، أو توبة أبي حذيفة بن عتبة ، أو توبة عمر بن الخطاب وعظم شعوره بالذنب يوم جادل النبي ﷺ في صلح الحديبية .. إلى غير ذلك من الأمثلة التي تذخر بها السيرة وتعلن عن عظمة هؤلاء الرجال وعظمة توبتهم ورقيّهم الإيماني ومنزلتهم عند الله سبحانه وتعالى .

---

(١) سنن الترمذي : (ج٤٩/٥) كتاب العلم ـ باب ماجاء في فضل الفقه على العبادة ح٢٦٨٢ .